التناسب في العدول بين الألفاظ للمعاني عند الزمخشري في تفسير الكشّاف

م.د. رياض خلف خزي المرشدي
جامعة واسط– كلية التربية

الملخّص

يُعدُّ التناسب علما من علوم القرآن وأثراً من أثار نظمِهِ ، والقرآن الكريم بناء أُحكمت آياتهُ ونُسّقت أدقّ تنسيق ، فلا توجد فيه كلمة تنبو عن مكانها، حتى أنّكَ ترى كل لفظ في محلّه ولا يؤدّي معناهُ في سياقِهِ لفظٌ اخر ، ويهدف البحث للكشف عن جهد الزمخشري بعلم المناسبة بوصفهِ – أي علم المناسبة – أحد علوم القرآن ، والقرآن وحدة متماسكة بين آياتهِ وسورهِ وحروفِهِ ، وقد لفت سرّ هذا التتابع والتشاكل والانسجام بين الفاظِهِ ومعانيه اهتمام الزمخشري فأخذ يبحث في تناسب الثنائي: اللفظ والمعنى ، فكثيراً ما يعدل القرآن من لفظٍ لاخر وما هذا العدول الاّ ليُناسب اللفظ معناهُ ، فللقرآن مقصدية في وضع كل لفظ موضعه لعلة وسبب وغاية أرادها وساقها في ترتيب وتسلسل واضحين.

Summary

Proportionality is considered one of Quran sciences, and a part of its grammar. Quran is a structure that its verses are built in such a great way and made in the finest shape. It has no word that comes in not proper place, so you see that each word is in perfect place and no other word can take it or replace it. And this thesis is to show what Al-Zamakhshari worked for in the proportionality science, saying one of the Quran sciences. However, Quran is one completed unit in Suras, versus and letter and the secret behind this sequence, competence and harmony of its meanings derived Al-Zamakhshari's attention so he started searching in the doubled proportionality: pronunciation and meaning since Quran shifts in many places from one pronunciation to another and this shifting is just to help words fit their meanings. So, there is reason why Quran put each pronunciation in a certain place, and that helps getting an obvious order and sequence.

المقدّمة

القرآن الكريم هو كتاب الله المعجز الذي أُحكمت آياتُهُ ، فهو دقيقٌ في سبكهِ ، متينٌ في أسلوبهِ ، متصلٌ بعضُهُ ببعضٍ كأنّهُ عقدٌ منتظمة، تلاءمت حروفهُ ، وتناسقت كلماته، وتلاحم بعضها مع بعض ، حتى جاء أَوّلهُ متناسقاً مع اخرهِ ، واخرهُ متآلف مع أوّلِهِ.

كما أنَّ للقرآن الكريم صفات ينماز بها وينفرد عن أي نصٍ اخر، فتنوع دلالته ، وجمال أسلوبهِ ، وكثافة معانيه ، فنراه يوجز مرة ويُسهب ويُطنبِ اخرى ، وفي كل الاحوال يؤدي اللفظ معناه على اتم وجه واكمل صوره ، فضلاً عن سعة دلالته وانفتاحه ، وهذا سر خلوده وبقائِهِ ، وكل توجيهٍ للنّص هو فهم لدلالة عصر المفسر وبيان مكنوناتهِ.

ويُعدّ علم المناسبة (التناسب) من أهم العلوم التي تعين على تفسير النص القرآني الذي له وجوه إعجازية كثيرة فهو يردُّ على مزاعم القائلين بأن القرآن غير مترابط الاجزاء في معظم صورهِ ، وقد أولى علماؤنا هذا العلم عناية واسعة في كتب التفسير وعلوم القرآن ، وتأتي أهمية دراسة التناسب كونهُ يبين الغرض الكلي للسوره ويفتَح افاقاً تفسيرية واسعة ، ويكشف وجهاً اعجازياً من وجوهِهِ ، إذ تبيّن الترابط بين أجزائهِ لفظ بلفظ وجملة بجملة واية باية .

ويسلط البحث الضوء على جهد الزمخشري في الكشف عن التناسب بين الالفاظ والمعاني لكثير من النصوص القرآنية ويبيّن معرفة المفسّر بالمناسبة وأبعادها فضلاً عن التفاتاتهِ الرائعة لكثير من أسرار ترتيب النّص القرآني واختيار الفاظ دون سواها وعدولهِ عن لفظ لاخر وما كل ذلك الاّ ليناسب اللفظ في مكانهِ معنى السياق.وقد قسمنا البحث الى عنوانات منها : التناسب في اللغة والاصطلاح ، و تأريخ علم المناسبة وتحدثنا عن أول من كتب فيه وصولاً الى المفسرين الذين أشاروا اليهِ ، و التناسب بين الألفاظ والمعاني ثم جاءت الدراسة التطبيقية للتناسب بين الألفاظ والمعاني في العدول من لفظ لاخر عند الزمخشري وهو موضوع البحث ، ثم أتبعناها بخاتمة وقائمة بالمصادر والمراجع ، والحمد لله رب العالمين.

- **التناسب لغة واصطلاحا:**

اذا تتبعنا لفظ التناسب والمناسبة في كتب المعجمات نجد لهُ الفاظاً مقاربة كالتشاكل والتقارب والاتصال والترتيب ، فيذكر ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) أن: " النون والسين والباء كلمة واحدة قياسها اتصال شيء بشيء"[١] ، وهو : "المقاربة والمشاكلة" [٢] ، ويرى ابن منظور (ت٧١١هـ) أَنّ معنى : " ناسَبهُ : شركَهُ في نسبِهِ ، والمناسبة : المشاكلة، وتناسبا : تماثلا وتشاكلا ،

والتناسب من تناسبَ ، ومعنى المناسبة : هي المقاربة والمشاكلة".[٣]

وفي تاج العروس للزبيدي (ت١٢٠٥هـ) : " فلان يناسب فلاناً فهو نسيبه ، أَي قريبه، والمناسبة : المشاكلة ، ويقول : بين الشيئين مناسبة وتناسب ، أي مشاكلة وتشاكل ، وكذا قولهم : لا نسبة بينهما ، وبينهما نسبة قريبة" [٤] فالتناسب والمناسبة في أكثر معانيهما هما التقارب والتشاكل والارتباط ، واتصال شيء بشيء اخر لعلاقة تربط بين الاثنين. أما في الاصطلاح فقد عرَّفَهُ البقاعي (ت٨٨٥هـ) بقولِهِ : " هو علم تُعرف منهُ علةُ ترتيب أجزاء القرآن" [٥] ، ويكون مرجعها في الآيات ونحوها : إلى معنىً رابطٍ بينهما خاص أو عام ، عقلي أو حسي أو خيالي ، أو غير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذهني ، كالسبب والعلة والمعلول والنظرين والضدّين" [٦]

يتبين لنا أنّ : المعنى اللغوي قريب الى معناه الاصطلاحي فكلا المعنيين يشير الى دلالة واحدة وإن جاءت تسمياتها مختلفة فهما يصبان في مجرى واحد يكشف عما يدلُّ عليه مفهوم التناسب والمناسبة ، وبعد أن عرفنا معنى اللفظ في اللغة والاصطلاح لابد من التعرف تأريخ هذا العلم ونشأته.

- تأريخ علم المناسبة:

لا يخفى أنّ المفسرين هم أولى الناس اهتماماً بالقرآن الكريم وبيان معانيه وتفاصيل آياتِهِ وكشف اسرارِهِ ، فهم يبحثون في أبوابِهِ بابا بابا ويستعينون على ذلك بمرجعياتهم ، وقد اهتموّا بجلاءِ وجهِ الارتباط بين سورهِ او بيان تناسب الآيات فيما بينها وتقاربها.وقد احتلّ مفهوم التناسب عناية واسعة منهم ، حتى كان من المفسرين من يعيب على المقصّرين فيه ، فقد ذكر السيوطي أنّهُ : " يجب على المفسّر أَنْ يتحرّى في التفسير مطابقة المفسرّ وعليه بمراعاة المعنى الحقيقي والمجازي ، ومراعاة التأليف ، والغرض الذي سيق لهُ الكلام"[٧].

و ادقّ اشارة الى هذا العلم ما ذكرهُ صاحب (كشف الظنون) عندما فصّل في فروع التفسير ، فقد : " جعل من فروع التفسير علم المكّي والمدني ، الحضري والسفري، وعلم النهاري والليلي ، وعلم الصيفي والشتائي ، وعلم أول ما أنزل واخر ما أنزل ، وعلم سبب النزول ، وعلم مناسبة الآيات والسور"[٨].واذا راجعنا تأريخ هذا العلم نجد أن أول من أشار اليه هو أبو بكر النيسابوري (ت ٣٤٢هـ) الذي كان يتتبع اسباب الربط والمناسبات بين الآيات ودعا العلماء للعناية بذلك"[٩].

وقيل أن أبا مسلم الاصفهاني (ت ٣٢٢هـ) في تفسيره (جامع التأويل) ، أوّل من أشار

الى أهمية الترابط بين الآيات للوصول الى المعنى[١٠] ، ونقل الزركشي أن : (أوّل من أظهر العلم ببغداد علم المناسبة ، ولم نكن قد سمعناهُ من غيره الأمام أبو بكر النيسابوري وكان عزيز العلم بالشريعة والأدب ، وكان يقول على الكرسي اذا قرئ عليه الآية : لِمَ جعلت هذه الآية جنب هذه ؟ وكان يُزري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة) [١١].

وبعدها شاع هذا العلم وملأ الآفاق الى ان وصلنا الى الباقلاني (ت ٤٠٣هـ) نجد لهُ دراسة يبحث في بعض فصولها المناسبة بين المعاني المختلفة في بعض آيات القرآن ، فمثلا تحدث عن سورة النمل بقولهِ : " تأمل السورة التي يذكر فيها النمل ، وأنظر في كل كلمة، وفصل فصل ، بدأ بذكر السورة الى أنْ بيّن أنَّ القرآن من عندهِ ، ثم وصل بذلك قصة موسى (عليه السلام) وأنهُ رأى ناراً ، فقال لأهلهِ أمكثوا: " إني آنستُ ناراً سأتيكم منها بخبرٍ أو آتيكم بشهابٍ قبسٍ لعلكم تصطلون"[١٢])[١٣]ويعد تفسير الاسكافي (ت ٤٢٠هـ) من أكثر التفاسير أشارة الى المناسبات بين الآيات والمناسبة داخل الآية الواحدة فلا تراه يمر بآية دون آن يكشف عن مناسبتها لما سبقها او لما شابهها ، والامثلة في تفسيرهِ لا تحصى ، وكثيراً ما يشير الى المتشابه بين الآيات.[١٤]

أما في القرن القرن السادس الهجري فقد ظهر الينا مفسر ذاع صيته وملأ ذكره الآفاق ، وكانت عنايته واضحة بعلم المناسبة ، صاحب تفسير : (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) ، ويمكن أن نلاحظ ذلك من خلال حديثه عن النظم اذ يرى : " أنّ النظم الذي هو أمّ أعجاز القرآن والقانون الذي وقع عليه التحدّي ومراعاتهُ أهم ما يجب على المفسرّ"[١٥].وبعد أن تعرفنا الى تأريخ علم المناسبة و أبرز من كتب فيه لابد من الاشارة الى التناسب بين الالفاظ والمعاني ودور السياق في اختيار اللفظ وملاءمتة لمعناهُ.

– التناسب بين الألفاظ والمعاني:

شكل ثنائي اللفظ والمعنى جدلية في تأريخ الثقافة العربية وساحة التفسير تحديداً ، ونكاد نتفق جميعاً على أنَّ دلالة اللفظ تختلف باختلاف السياق الذي ترد فيه ، فاللفظ يأخذ دلالتهُ تبعاً لوظيفته المحدّدة بالسياق ، فاستحسان اللفظ في مكانهِ يكون لعلة ، وذلك : " لأنهُ لابد لكل كلام تستحسنهُ ، ولفظ تستجيدهُ من أن يكون لا ستحسانك ذلك جهة معلومة ، وعلّة معقولةَ ، وأنْ يكون لنا الى العبارة عن ذلك سبيل ، وعلى صحة ما ادعيناهُ من ذلك دليل"[١٦] . ويعتقد البعض : (أنَّ السبب في اختيار الفاظ

بالذات دون غيرها لا يزال الى حدٍ ما سراً من الأسرار)[١٧].وقد وضّح الجرجاني أنّ الالفاظ لا تتفاضل فيما بينها الاّ من خلال دخولها في السياق ، فذكر : (أنّ الالفاظ لا تتفاضل من حيث هي الفاظ مجّردة ، ولا من حيث هي كلم مفردة وأنّ الالفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها من ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق لهُ بصريح اللفظ)[١٨]،كما أنَّ : (الالفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسِها ، ولكن لأن يضم بعضها الى بعضٍ فيعرف فيما بينها من فوائد)[١٩].إذن فاللفظ لا قيمة لهُ من دون أن يكون في سياق يُحدّد معناهُ ، ويكشف عن أهميته ودوره في توجيه المعنى، وهذا ما يحدّدهُ السياق ، كما أنَّ السياق القرآني يقتضي التماسك والترابط بين المعاني فضلا عن ذلك : أنَّ آيات السور القرآنية جاءت وفق ترتيب قديم في اللوح المحفوظ ، وهو ترتيب ألهي أراده الحق تعالى ، ولما كان هذا الترتيب على هذا الشكل الموجود في المصحف الشريف ، كان لابد أنْ تكون هناك مناسبة بين ترتيب الآيات ومناسبة تربط أجزاء السورة فيما بينهاوالسياق قد يكون خادماً لعلم المناسبة في ابراز علل الترتيب وتقديم بعض الكلمات على بعض[٢٠].

ويرى محمد خطّابي أَنَّ : (المناسبة أو التناسب بين الآيات بحث عن علاقة آية بآية اخرى متقدمة)[٢١].فـ (المفسر يشرع في البحث عن المناسبة حيث تنقطع الصلة بين آية و آية أو آيات سابقة ونعني بانقطاع الصلة أن تكون الآية السابقة كلاماً عن القتال والآية اللاحقة لها كلاماً عن انفاق الاموال ، فيفترض سؤال سائل : ما وجه المناسبة بين هذهِ وتلك؟)[٢٢] ، فوظيفة علم المناسبات هو الكشف في وجه ورود وانتظام المعاني واتصافه في هذا المكان دون غيرهِ ، وبيان اللحمة والترابط بين عناصر السياق الواحد)[٢٣].

وتشكل مسألة العدول في السياق من لفظ الى اخر ظاهرة واضحة عند الزمخشري فالألفاظ عندهُ تناسب معانيها الواردة فيها ، فقولهُ تعالى : " إنَّ مثل عيسى عند الله كمثل ادم خلقَهُ من تراب"[٢٤] ، يسأل الزمخشري : (ولَمِ من (طين) ؟ كما أخبر سبحانهُ في غير موضع : " إنّي خالقٌ بشراً من طينٍ"[٢٥] ، فإنّما عدل عن الطين الذي هو مجموع الماء والتراب الى ذكر مجرّد التراب لمعنى لطيف ، وذلك أنهُ أدنى العنصرين واكثفهما لماّ كان المقصود مقابلة من ادّعى في المسيح الإلهية ، أتى بما يصغّر أمر خلقِهِ عند من ادعى ذلك ؛ فلهذا كان الاتيان بلفظ التراب أحسن في المعنى

من غيره من العناصر)[٢٦].في النص السابق تنبه الزمخشري الى مناسبة ذكر التراب دون الطين مشيراً الى دلالة هذا اللفظ على المعنى المراد دون سواهُ ومناسبته لهُ ، وقد ورد السياق لمعنى اشار اليه وكشف عن سرهِ ، وهذهِ الامثلة من المناسبات كثيرة في تفسيرهِ وسيكشف البحث عنها في الآتي.

– التناسب بين الالفاظ والمعاني في العدول من لفظ لاخر:

إن النظر في ملاءمة المفردة وتناسبها مع موضوعها ، وتمام مطابقتها لما يقتضيه تمامها من حيث الاختيار في التقديم والتأخير أو غير ذلك من الاساليب البيانية مما أشار اليه الزمخشري في تفسيرهِ وكشف عنهُ ، فقد : (تكون للسياق الذي ترد فيه الآية سمة تعبيرية خاصة ، فتتردّد في الفاظ معينة بحسب تلك السمة ، وقد يكون للسورة كلها جو خاص وسمة خاصة فتطبع الفاظها بتلك السمة ، وهذا واضحٌ في القرآن)[٢٧].

كما أن : (القرآن الكريم في اختياره لألفاظ في بعض الآيات ليؤدّي معنىً معيناً وفي الغرض نفسهِ يختارُ لفظاً اخر فيتوهم السامع أنّ اللفظين سواء في الدلالة ومثلان في المضمون ، فيقع في وطأة الشكّ ، ويتساءل : لماذا عبّر بهذا اللفظ هنا وعبّر بهذا اللفظ هناك؟ وعند البحث والوقوف على أسرار التنزيل نجد أن التعبير القرآني في كلا الموضعين أو المواضع كلها في محلّهِ ، وقد أصاب المحزّ ، وطبق المفصل ، ووقع كل لفظ على شاكلتهِ)[٢٨].واذا تتبعنا تفسير الزمخشري نجد أنّهُ كان يشير ويكشف عن التناسب بين الالفاظ ومعانيها ، ولِمَ ذكر القرآن هذا اللفظ دون سواه أو عدل عنهُ الى غيرهِ.

ففي قولهِ تعالى : (قال الملأَ من قومِهِ إنّا لنراكَ في ضلالٍ مبين * قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكنّي رسولٌ من ربّ العالمين)[٢٩] ، يسأل الزمخشري ، قائلا : (فإن قلتَ : لِمَ قال : " ليس بي ضلالة" ولم يقل ضلال كما قالوا ؟ قلت : الضلالة أخص من الضلال ، فكانت أبلغ في نفي الضلال عن نفسِهِ ، كأنهُ قال : ليس بي شيءٌ من الضلال ، كما قيل لك : ألك تمرٌ ، فقلت : مالي تمرةٌ)[٣٠]. فسياق النّص عّبر فيه القرآن بلفظ (ضلال) ثم عدل الى لفظ (ضلالة) كون الأخير أخص من الاول ومناسب ذكرُهُ للمقام.

وقد عدل القرآن في تعبيرهِ من المفرد الى المجموع وما ذلك الاّ ليناسب السياق ، والزمخشري كشف عن ذلك وهو يُفسّر قوله تعالى : ((وقطّعانهم أثني عشر أسباطاً أمماً وأوحينا الى موسى إذ استسقاه قومُهُ أَن أضرب بعصاك الحجر فانبجست منهُ أثنتا عشرةَ عيناً قد علم كلُ أناس مشربهم وظلّلنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المنّ والسلوى كلوا

من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون))[٣١]. فيسأل: (فإن قلت : مميّز ما عدا العشرة مفرد ، فما وجه مجيئه مجموعاً ؟ قلت: لو قيل ذلك لم يكن تحقيقاً لأن المراد : وقطعانهم اثنتي عشرة قبيلة ، وكل قبيلة أسباط لا سبط ، فوضع أسباطاً موضع قبيلة ، ونظيرهُ :

"بين رماحي مالكٍ ونهشلِ"[٣٢])[٣٣]

فهو يرى أن مناسبة العدول من الافراد الى المجموع ليلائم السياق الوارد فيه مستشهداً على ذلك ببيت شعري ، ومن مناسبات الالفاظ للمعاني هو تنوّع التعبير القرآني في آيةٍ واحدة ، فالقرآن في سورة يونس يتحدث عن موسى (عليه السلام) وهو ينوّع في خطابِهِ فيُثنّي ثم يجمع ثم يوحّد في نصٍ واحد وهو قولُهُ تعالى : (وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوّءا لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم قبلةً وأقيموا الصلاة وبشّر المؤمنين)[٣٤]، اذ يلتفت التفاتة جميلة تنمّ عن وعي بالنّص وسعة أفق ودراية واسعة بتناسب الالفاظ وملاءمتها لمعانيها ، فالتثنية : تبوّءا ، ثم الجمع : أجعلوا ، ثم الافراد : بشرّ وكلُّها في سياق واحد ، فهو يسأل : (فإن قلت : كيف نوّع الخطاب ، فثنّى أولاً ثم جمع ثم وحّد اخراً: قلت : خوطب موسى وهارون (عليهما السلام) أن يتبوءا لقومهما بيوتاً ويختاراها للعبادة ؛ وذلك مما يُفوّض الى الانبياء ، ثم سيق الخطاب عاماً لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها ؛ لأَنَّ ذلك واجب على الجمهور ، ثم خُصّ موسى (عليه السلام) بالبشارة التي هي الغرض تعظيماً لها وللمبشرِ بها)[٣٥].

إنَّ توجيه الزمخشري للنّص يكشف تنوّع الالفاظ ودلالتها على معانيها وتناسبها مع سياقها فالخطاب بصيغة التثنية لأَنَّ الامر لهما وحدهما بالفعل ثم عدل الى المجموع لأنّهما دخلا ضمن عموم الناس ، وأخيراً وحّد خطابه لأنّهُ مختص بالبشارة لموسى (عليه السلام) .

ويستوقف الزمخشري الفعل (ترى) في سورة الحج اذ جاء مخاطباً المجموع ثم أَفرد ، وهو قولُهُ تعالى : (يوم ترونَها تُذهلُ كل مرضعة عمّا ارضعت وتضعُ كلُّ ذاتِ حملٍ حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكنّ عذاب الله شديد)[٣٦]، اذ يقول : (فإن قلت لِمَ قيل أوّلاً : ترونَ ثَم قيل على الإفراد ؟ قلتُ: لأَنَّ الرؤية أوّلاً علّقت بالزلزلة فجعل الناس جميعاً رائين لها ، وهي معلقة ويكون الناس على حال السكر ، فلا بُدّ أنِ يُجعل كل واحد منهم رائياً لسائرهم)[٣٧]. فدلالة الفعل بصيغة الجمع(ترون) في مطلع الآية تضمنت رؤية الناس للزلزلة ثم تغير سياق النّص ليُناسب معنى الآية الى صيغة الافراد (ترى) إذ يكون كل شخص رائيا للجميع لا للزلزلة.

وفي موضع اخر يلتفت الزمخشري الى لفظة (آية) في قولهِ تعالى : ((أولم يروا الى الارض كم انبتنا فيها من كل زوج كريم * إنَّ في ذلك لآيةً وما كان أكثرهم مؤمنين * وإنَّ ربّكَ لهو العزيز الرحيم))[٣٨].

ويسأل لِمَ عدل القرآن ولم يقل آيات ، قال : (وهلاّ قال : آيات؟ قلتُ : فيه وجهان : أنْ يكون ذلك مشاراً بهِ الى مصدر أنبتنا ، فكأنهُ قال: إنَّ في الانبات لآية أي آية ، وأنْ يُراد : أنّ في كل واحدة من تلك الأزواج لآية)[٣٩].

فدلالة العدول واضحة في كلام الزمخشري اذ يقصد القرآن بذكره (آية) متعجباً من فعل الانبات وهذا الوجه هو الأقرب لمعنى النّص ومناسباً للسياق الوارد فيه.

ومما ووجهه الزمخشري مخالفاً فيه البقاعي صاحب تفسير (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) قوله تعالى : ((قال كلا فاذهبا بآياتنا إنّا معكم مستمعون * فأتيا فرعونَ فقولا إنّا رسولُ ربّ العالمين))[٤٠]. اذ يستوقف المفسران خطاب القرآن بـ (رسول) مع أنّ المخاطب أثنان ، فيقول الزمخشري : (فإن قلت : هلا ثنّى الرسول كما ثنّى في قوله تعالى : ((إنّا رسولا ربّك))[٤١] ؟ قلت : الرسول يكون بمعنى المرسل وبمعنى الرسالة ، فجعُل بمعنى المرسل فلم يكن بد من تثنيتهِ وجعل ههنا بمعنى الرسالة فجازت التسوية فيه – إذا وصف فيه – بين الواحد والتثنية والجمع ، كما يفعل بالصفة بالمصادر ، نحو صوم وزور: قال :

الكني اليها وخبّر الرسول
أعلمُهم بنواحي الخبر

فجعلَهُ للجماعة ، والشاهد في الرسول بمعنى الرسالة قولَهُ:

لقد كذب الواشون ما فهتُ عندهم
بسرٍ ولا أرسلتهم برسول[٤٢])[٤٣]

ويذهب البقاعي ليناسب بين اللفظ والمعنى الى توجيه أبعد من ذلك ، اذ يقول : (أفردَهُ مريداً بهِ الجنس الصالح للأثنين ، إشارة بالتوحيد الى أنهما في تعاضدهما واتفاقهما كالنفس الواحدة)[٤٤].

ان المفسرين نظرا الى النّص كلٌّ حسب رؤيته وقد استوقفهما عدول القرآن في خطاب المثنى فالزمخشري يرى أن مناسبة ذلك متعلق بالرسالة والمرسل ، بينما البقاعي أخذ النّص بتوجيه قريب المعنى لاسيما أنّ تفسيره مختص بالتناسب ، وهذا كلُّهُ اجتهاد في معرفة النّص.وفي نص اخر يلتفت الزمخشري الى انتقال التعبير القرآني من الجمع الى المفرد في قولهِ تعالى : ((وما أضلّنا الاَّ المجرمون * فما لنا من شافعين * ولا صديقٍ حميم))[٤٥]إذ يسأل : (فإن قلت : لِمَ جمع الشافع ووحّد الصديق؟ قلتُ : لكثرة الشفعاء في العادة وقلة الصديق ، ألا

ترى الرجل انَّ امتحن بإرهاق ظالم نهضت جماعة وافرة من أهل بلدِهِ لشفاعتِهِ رحمة لهُ وحسبه ، وإن لم يسبق لهُ بأكثرهم معرفة ، وأمّا الصديق – وهو الصادق في ودادِك الذي يهمُّهُ ما أهمّكَ – فأعزّ من بيض الأنوق).[٤٦]

إن توجيه النّص أعلاه اعتمد فيه الزمخشري على معنىً قريب وبسيط ، كشف من خلالِهِ مناسبة اللفظ لمعنى الآية فقد بدأ الخطاب : " شافعين" ثم تحوّل الى : "صديق" من جمع الى إفراد ، اذ نلاحظ دقة النّص في انتقاء اللفظ وملاءمته للسياق.

ومما تنوّع توجيهه عند الزمخشري والبقاعي ليُناسب به اللفظ معناهُ قولُهُ تعالى: ((ولقد أُوحي اليك والى الذين من قبلِك لئن اشركتَ ليحبطّنَ عملك ولتكوننّ من الخاسرين)[٤٧] ، اذ نرى أَنَّ كل مفسر ذهب بوجهة تُناسب سياق النّص ، فالزمخشري يسأل :(فان قلت : الموحى اليهم جماعة ، فكيف قال : ((لئن اشركتَ)) على التوحيد؟ قلتُ : معناهُ أُوحى اليك لئن اشركتَ ليحبطّنَ عملك والى الذين من قبلك مثلَهُ ، أو أوحي اليك والى كل واحد منهم : "لئن اشركتَ" ، كما تقول : كسانا حلّة، أي : كل واحد منّا).[٤٨]

فالزمخشري هنا يرى أنَّ النّص يقتضي محذوفاً حتى يُناسب لفظه معناهُ ، على غير الوجه الذي ذهب اليه البقاعي إذ يرى أَنَّ : (صَحّ قولُهُ بالأفراد – أشركتَ – وعدل اليه ؛ لأنّهُ اعظم في النهي وأقصد في الزجر لمن يتأهل لهُ من الأمة ، وأكد لأنَّ المشركين ينكرونَهُ غاية الانكار).[٤٩]

ومن اللطائف التي استوقف عندها الزمخشري مناسبة ورود الفعل ((فزع)) بالماضي دون المضارع مع أنَّ السياق يخالف ذلك وهو يفسّر قولُهُ تعالى : ((ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات والأَرض الاَّ من شاء اللهُ وكلٌّ آتوهُ داخرين))[٥٠]، وقد وافق البقاعي في ذلك ، اذ يسأل : (فإن قلت : لِمَ قيل : "ففزع" دون فيفزع؟ قلتُ : لنكتةِ وهي الاشعار بتحقّق الفزع وثبوتِهِ ، لأَنّهُ كائن لا محال وواقع على أهل السموات والأرض ؛ لأنَّ الفعل الماضي يدلُّ على وجود الفعل وكونُهُ مقطوعاً به ، والمراد فزعهم عند النفخة الاولى حين يصعقون)[٥١]

وعلّقَ البقاعي على الآية بقولِهِ : (ولماّ كان ما ينشأ عنهُ من فزعهم مع كونهِ محقّقاً مقطوعاً بهِ كأنّهُ وجد ومضى يكون في آنٍ واحد، أشار الى ذلك وسرعة كونُهُ بالتعبير بالماضي فقال : (ففزع)) أي صعق بسبب هذا النفخ)[٥٢]

فالقرآن عبر بالفعل الماضي ((فزع)) عن النفخ بالصور رغم أنّهُ حدث مستقبلي والتعبير عنهُ لابد أن يكون بلفظ المستقبل ،

وما هذا العدول الاَّ ليُناسب معنى السياق اذ أنَّ حدث الفزع حاصل واقع لا محالة وكأنهُ حدث فعلاً.ويتابع الزمخشري دلالة الفعل المضارع (يُسبّحن) ومناسبة مجيئها فعلاً مضارعا دون (مسبّحات) وهو يفسّر قوله تعالى : ((اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داوود ذا الايدِ إنهُ أوّاب * إنّا سخّرنا الجبال معهُ يُسبّحنَ بالعشي والاشراق)).[٥٣]

يقول : (فإن قلت : هل من فرقٍ بين يُسبّحن ومسبّحات؟ قلت : نعم ، وما اختيار يُسبّحن على مسبّحات الاَّ لذلك ، وهو الدلالة على حدوث التسبيح من الجبال شيئاً بعد شيءٍ وحالاً بعد حال).[٥٤]

وتابع البقاعي الزمخشري في بيانهِ لمناسبة عدول القرآن من الاسم الى الفعل ، قال : ("يسبّحن" ولم يقل : "مسبّحة" أو "تسبيح" عبر بالفعل المضارع لَمِا كان من تسبيح الجبال شيئاً فشيئاً ، وهو شيءٌ عجيب لأَنّها جماد)[٥٥]وفي سورة المؤمنين يشير الزمخشري الى مناسبة عدول القرآن من التثنية الى الافراد وهو يفسر قولُهُ تعالى : ((وجعلنا ابن مريم وأمَّهُ آيةً وآويناهما الى ربوةٍ ذات قرارٍ ومعين))[٥٦]، يقول : (فإن قلت : لو قيل : آيتين هل يكون لهُ وجهٌ؟ قلت : نعم ؛ لأَنَّ مريم ولدتْ من غير مسيس ، وعيسى روح الله ألقي اليها ، وقد تكلّم في المهد وكان يُحيي الموتى مع معجزات اخر ، فكان آية من غير وجهٍ).[٥٧] وللبقاعي رأي في تناسب اللفظ لمعنى النّص ، فلو : (قال : آيتين ، لكان ربّما ظن أنهُ يُراد حقيقة العدد ، ولعلّ في ذلك إشارة الى أَنّهُ تكمّلت به آية القدرة على ايجاد الانسان بكل اعتبار من غير ذكر ولا أنثى)[٥٨]

إنَّ توجيه معنى النّص يكشف عن استعمال القرآن للفظ في محلّه ليُناسب السياق ، فالقرآن في سياق الحديث عن اثنين – عيسى وأمه "عليها السلام". ظاهراً وهذا غير مقصود والمراد بيان حال عيسى "عليه السلام" تحديداً كونُ آية لوحدهِ وخارقة لما تعارف عليه الناس وألفَهُ البشر لذلك لم يُثنِ الآية ؛ لأَنّهُ في معرض ذكر المعجزة للمفرد.

الخاتمة

إنَّ علم المناسبة قديم تضرب جذوره الى القرن الرابع الهجري فقد عرفَهُ علماء بغداد ثم انتشر في باقي المدن العربية والاسلامية ، ومعرفة المفسرين بهذا العلم مما لا شكّ فيه فهم وان اختلفوا بالتسمية وطريقة معالجة النصوص تناسبياً الانّ أنهم كانوا مجمعين على أهميته في التفسير.

يعد علم التناسب من العلوم المهمة وهو يكشف لنا أَنَّ هذا القرآن ليس من صنع البشر وأنَّ كل جزء وضع فيه في موضعِهِ المناسب بشكل محكم ومترابط الاجزاء.

كما أنَّ مراعاة التناسب يعطي المفسر أَبعاداً تفسيرية واسعة تساعدُهُ أَن يرى النّص من زوايا مختلفة.وعلم المناسبات من علوم القرآن الكريم وهو يُبيّن وجه النظم بين الكلمات في الآية الواحدة وتناسبها لمعنى سياق النّص ويكشف النظم الترتيبي للآيات.

ويكشف التناسب الوجوه الاعجازية للنصوص القرآنية ، ويُبيّن مضامين الآيات ودقة استعمال اللفظ في مكانِهِ.وقد أوضح البحث قصد القرآن لاستعمال لفظٍ دون سواه وعدوله عنهُ ، وما كان ذلك الاَّ ليُناسب اللفظ معناهُ في سياقهِ الوارد فيه.

وكشف البحث عن ملائمة المفردة وتناسبها للمعنى الذي أُريد لها داخل السياق وتمام مطابقتها لهُ.

الهوامش

١- مقاييس اللغة /٤٢٣/٥.
٢- القاموس المحيط/١٣٠/١.
٣- لسان العرب/٢٤٢/١٤.
٤- تاج العروس/٢٦٥/٤.
٥- نظم الدرر/٦/١.
٦- البرهان في علوم القرآن /٤١/١.
٧- الاتقان/١٩٨/٤.
٨- كشف الظنون/١٦/١.
٩- شذرات الذهب في اخبار من ذهب/٣٠٢/٢، مباحث في علوم القرآن/١٥٠.
١٠- تفسير أبي مسلم الاصفهاني/٦ ، الوافي بالوافيات/٢٤٤/٢، كشف الظنون/٥٣٨، معجم المفسرين /٤٨٩/٢.
* هو عبد الله بن محمد بن زياد الحافظ النيسابوري ، وكان امام عصرِهِ في الشافعية في العراق (ت ٣٢٤هـ) وللتفصيل في حياتهِ ، ينظر : سير اعلام النبلاء/٦٥/١ ، الوافي بالوافيات/٢١٨/١٧.
١١- البرهان في علوم القرآن /٣٦/١.
١٢- النمل/٧.
١٣- اعجاز القرآن/٢٨٧.
١٤- ينظر : درة التنزيل وغرة التأويل /٢٧٢/١٥.
١٥- الكشاف/٦٤/٣.
١٦- دلائل الاعجاز/٤١.
١٧- بناء الجملة العربية/٣١٣.
١٨- دلائل الاعجاز/٤٦.
١٩- دلائل الاعجاز/٥٣٩.
٢٠- نظرية السياق القرآني/٣٨.
٢١- لسانيات النّص/١٨٩.
٢٢- لسانيات النّص/١٩٠.
٢٣- نظرية السياق القرآني/٣٩.
٢٤- آل عمران/٥٩.
٢٥- ص/٧١.
٢٦- الكشاف/٢٣٩/٣.
٢٧- التعبير القرآني/٢٣٧.
٢٨- صفاء الكلمة/١٢٥.
٢٩- الاعراف/٦٠-٦١.
٣٠- الكشاف/١٠٨/٢.
٣١- الاعراف/١٦٠.
٣٢- عجز بيت لابي النجم صدرهُ:
تبقّلتُ في أوّل التبقّل
ينظر: ديوان أبي النجم/٢٨٦.
٣٣- الكشاف/١٥٩/٢.
٣٤- يونس /٨٧.
٣٥- الكشاف/٣٤٦/٢.
٣٦- الحج/٢.
٣٧- الكشاف/١٤٤/٣.
٣٨- الشعراء/٧-٨-٩.
٣٩- الكشاف/٣٠٧/٣.
٤٠- الشعراء/١٥-١٦.
٤١- طه/٤٧.
٤٢- الاول لأبي ذؤيب ، ينظر : ديوان أبي ذؤيب/٥٤ ، والثاني لكثيرة عزة، ينظر : ديوان كثير/٤٦.
٤٣- الكشاف/٣١٠/٣.
٤٤- نظم الدرر في تناسب الآيات والصور/١٩/١٤.
٤٥- الشعراء/٩٩-١٠٠-١٠١.
٤٦- الكشاف/٣٢٧/٣.
٤٧- الزمر/٦٥.
٤٨- الكشاف/١٤٤/٤.

٤٩- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور / ٥٤٧/١٦.
٥٠- النمل/٨٧.
٥١- الكشاف/٣٩١/٣.
٥٢- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور/٢٢١/١٤.
٥٣- ص/١٧-١٨.
٥٤- الكشاف/٧٩/٤-٨٠.
٥٥- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور/٣٥١/١٦.
٥٦- المؤمنون/٥٠.
٥٧- الكشاف/١٩١/٣.
٥٨- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور/١٤٨/١٣.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- الإتقان في علوم القرآن : جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم ، مكتبة التراث ، ط٢ ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- أعجاز القرآن : أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني ، تحقيق: أحمد صقر ، دار المعارف ، مصر ، (د -ت).
- البرهان في علوم القرآن : بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ، تحقيق : محم أبو الفضل ابراهيم ، المكتبة العصرية ، بيروت ، صيدا ، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.
- بناء الجملة العربية : د . محمد حماسة عبد اللطيف ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، ٢٠٠٣م.
- تاج العروس من جواهر القاموس : السيد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق : عبد الكريم العرباوي ، د. احمد مختار عمر ، د. عبد اللطيف محمد الخطيب ، الكويت ، ط١ ، ١٤٢١هـ ، ٢٠٠٠م.
- التعبير القرآني : د. فاضل صالح السامرائي ، دار عمان ، ط٥ ، ١٤٨٢هـ ، ٢٠٠٧م.
- تفسير أبي مسلم الاصفهاني : محمد بن بحر الاصفهاني (ت ٣٢٢هـ) ، جمع واعداد وتحقيق : د. خضر محمد بنها ، تقديم : رضوان السيد ، موسوعة تفاسير المعتزلة ، (د -ت) .
- درة التنزيل وغرة التأويل : ابو عبد الله محمد الاصبهاني المعروف بالخطيب الاسكافي ، تحقيق : د. محمد مصطفى آيدن ، جامعة أم القرى ، ط١ ، ١٤٢٢هـ ، ٢٠٠١م.
- دلائل الاعجاز : عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق : محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط٥ ، ٢٠٠٤م.

- ديوان أبي النجم العجلي ، الفضل بن قدامة (ت ١٢٠هـ) ، جمعه وشرحه وحققه الدكتور محمد أديب جمران ، مجمع اللغة العربية ، دمشق ، ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٦م.
- ديوان أبي ذؤيب الهذلي / حياته وشعره : تحقيق : نورة الشملان ، جامعة الرياض ، عمادة شؤون المكتبات ، ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م.
- ديوان كثير عزة : شرح : قدري مايو ، دار الجيل بيروت ، ط١ ، ١٤١٦هـ – ١٩٩٥م.
- سير أعلام النبلاء : أبو عبد الله محمد بن عثمان الذهبي ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط و محمد نعيم ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط١١ ، ١٩٩٦م– ١٤١٧هـ.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب : ابن العماد الحنبلي ، دار الافاق الجديدة ، بيروت ، (د–ت) .
- صفاء الكلمة : د. عبد الفتاح لاشين ، دار المريخ للنشر ، ١٩٩٤م.
- القاموس المحيط : مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزأبادي (ت ٨١٧هـ) ، مؤوسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، ط٨ ، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل : أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (ت٥٣٨هـ) ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ط٢ ، ١٤٢١هـ – ٢٠٠١.
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون : مصطفى بن عبد الله حاجي خليفة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٢م – ١٤١٣هـ.
- لسان العرب : ابن منظور ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٠م.
- لسانيات النص: مدخل الى انسجام الخطاب : محمد خطابي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط٢ ، ٢٠٠٦م.
- مباحث في علوم القرآن : مناع القطان ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط٧، ١٩٩٠م.
- معجم المفسرين : عادل نويهض ، قدم له : المفتي حسن خالد ، مؤسسة نويهض الثقافية ، لبنان ، ط٣ ، ١٩٨٨م.
- مقاييس اللغة : أبو الحسن أحمد بن فارس ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر ، (د – ت).
- نظرية السياق القرآني : المثنى عبد الفتاح محمود ، دراسة تأصيلية دلالية نقدية ، دار وائل للنشر ، عمان ، الاردن ، ١٤٢٩هـ–٢٠٠٨.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : الامام المفسر برهان الدين بن أبي الحسن البقاعي (ت٨٨٥هـ) ، تحقيق : عبد الرزاق غالب المهدي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط٣ ، ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٦م.
- الوافي بالوفيات : صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي ، تحقيق : أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى ، دار أحياء التراث ، بيروت ، ٢٠٠٠م – ١٤٢٠هـ.